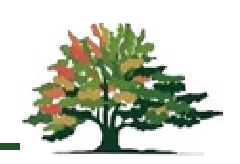
السنة الثانية

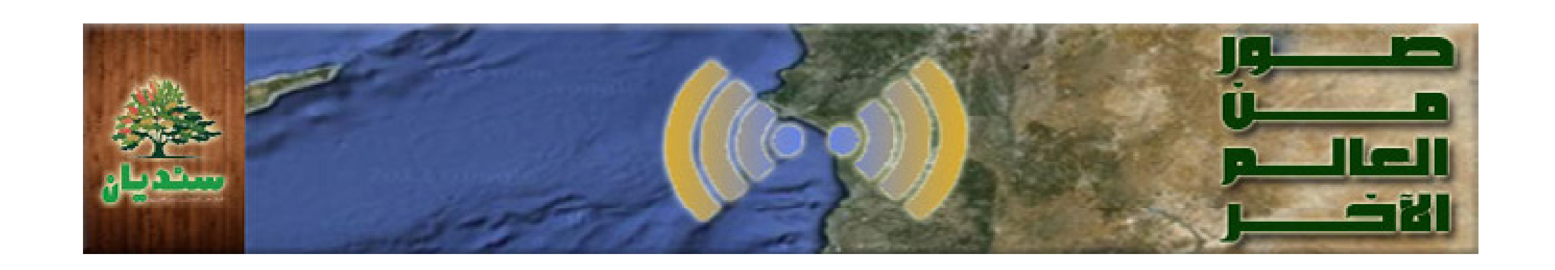




صور من العالم الآخر







تقديم

أطلت عليكم «صور من العالم الآخر» زاويةً ثابتةً في أعدادنا طوال العام الماضي. حرصنا من خلالها على أن ننقل أحداثاً وتفاصيل صغيرة تحدث هنا في الساحل وقلّما تجد الفرصة للعبور إلى الضوء لأنّها لاتناسب مصالح الإعلام الّذي يدّعي تمثيل «أبطالها».

كيف يعيش الناس هنا؟ كيف يفكّرون؟ كيف يتجاوبون مع تطورات الشأن العام؟ كيف يتعاملون مع طلبات الاحتياط الّتي حصدت الكثير منهم؟ كيف يعود الشهيد من معركة القائد؟ كيف ينظرون إلى الآخر الّذي يريد إبادتهم؟ أو الّذي يدّعي الرغبة بمشاركتهم؟

تلك أسئلة حاولت هذه الزاوية اقتراح إجابات لها من خلال مواكبة الأحداث الساحلية وتصوير الهموم والأفكار العامة هنا، بدءاً بطلبات الاحتياط والعدد المتزايد من الشهداء الّذين يتوافدون يومياً إلى قرى الساحل السّوري ليتركوا وراءهم أسراً مدمرةً عاطفياً ومعوزةً مادياً، وليس انتهاءً بجملة الأفكار والاعتقادات الّتي يحملها أهالي الساحل تجاه مايجري حولهم في المحافظات الأخرى، ومواقفهم واتجاهاتهم فيما يخص التطورات الّتي تطرأ في مسار القضيّة السورية.

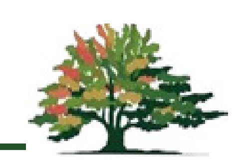
ربما تكون الأمكنة أو الأسماء مختلفةً عمّا هي عليه في الحقيقة، إلا أنّ الأحداث المروية في «صور من العالم الآخر» حقيقيةٌ بالكامل وليست من نسج خيال المحرّرين كما يظنّ البعض، حقيقيّة بكل مافيها من إفاداتٍ ومشاعر وإيحاءاتٍ متناقضة. ومن هنا تستمدّ هذه السلسلة قيمتها في أنّها نقلٌ مباشر شفاف لما قد لايرغب -أو لايهتم- كثيرون بنقله وحفظه بالرغم من أنّه جزءٌ من «الحاضر السّوري»، وسيسهم بلاشك بفهمٍ أفضل للمستقبل، والدور الّذي سيلعبه فيه أبناء الساحل.

من المؤكد أن هذه الصور لاتقدّم تأريخاً علمياً للساحل في سياق الثورة السورية، وتلك ليست الغاية المنشودة منها أصلاً. إنّها ،وإن صحّ التعبير، محاولة لإزالة الغمامة عن «العالم الآخر» وماذا يدور فيه، محاولة لتعريته أمام السوريين.

«صور من العالم الآخر» مبادرة توثيقية متواضعة، تحاول أن تمشي الخطوة الأولى في مشوار الألف ميل لزمنٍ لا ينظر فيه أهل الساحل إلى محيطهم كـ «عالمٍ آخر» والعكس بالعكس.

يحتوي هذا الملحق على مجموعة الصور المنشورة منذ شهر كانون الأوّل ٢٠١٢ وحتّى الأوّل من تشرين الثاني ٢٠١٣، مع العلم أنّ هذه السلسلة ستبقى مستمرة في الأعداد القادمة.





صور من العالم الآخر- كانون الأوّل ٢٠١٢

١

الحياة الطبيعية في «الزّراعة»

الحياة طبيعية بكل معنى الكلمة، عجقة، ناس عم تطلع وتفوت، حديث دائم عن مقتل إرهابيين وقرب السيطرة على «الريف» الذي أصبح نصف الموجودين فيه «أتراك»، دعوات دائمة بقرب نهايتهم، شتائم بين الحين والآخر على الفاسدين من الداخل والمنشقين والخونة، خلصت، الحسم قريب جداً.

٢

بانوراما

قرية مهملة في جبلة مكونة من بضع عائلات لا يتجاوز عدد سكانها الألف نسمة تستقبل شهيدها الحادي عشر، منذ أيام التحق أخو الشهيد بالاحتياط، ابن خاله طالب جامعة خطف منذ شهر تقريباً على طريق حمص دمشق، خال الشهيد معارض شيوعي، سجين سابقاً، وعاجز محبط حالياً، دخل خيمة العزاء بعد أيام فقال له أحدهم: «روح خلي الجيش الحر يحررلك إبنك بعدين تعا عزي بشهداء النظام اللي عم تعارضو».

٣

ثقافة

في بانياس، على أحد الشرفات المطلة على البحر يجلس طبيب «مثقف» مع أصدقائه المثقفين ، الطبيب الذي درس الطب ست سنوات في حلب، و اختص في دمشق خمس سنوات أخرى يتحدث عن «الأزمة» والإخوان والوهابيين ويشتم الشعب المتخلف الطائفي، بينما يتحدث ختيار في إحدى قرى جرد بانياس لم يخرج من قريته إلا لخدمة العلم منذ عقود عن طيبة الأكراد وكرم الدروز وخفة دم الحماصنة وعن عبثية ما تقوم به «الدولة».

٤

بالتاوون

بانياس أيضاً، طبيب «مثقف» أيضاً، يشتم العلويين، يدعوهم بقرود الجبل، يدعو الله

وطائرات الناتو أن تمسح قراهم من الوجود، بينما صياد يتعاطى «البالتاوون» في حي التربة تجتاحه جرعات محبة مفاجأة فيتذكر الرجل العلوي الذي شاركهم في المظاهرات وكلامه عن العيش المشترك، يتذكر كم صفق له بحماس ويتحدث عن مدى المحبة التي شعر بها تجاهه، ويشتم الـ«الجحاووش» الذين قتلوا نضال جنود و رموا جثته عند حاويات القمامة على مدخل بانياس.

٥
بعث

في القدموس، رفيق بعثي متقاعد يتحدث بكامل انفصاله عن الواقع و بكامل قناعاته الهذيانية عن «الوطن». هؤلاء لم ينقرضوا بعد. الصبحيات يشرب المتة مع بعض أصدقائه الذين كفروا بالحزب منذ زمن، يؤكد أن «الأزمة» ليست طائفية، يشرح ضرورة كشف المخطط الاستعماري الامبريالي الصهيوني، و يؤكد على ضرورة تنشئة «جيل» عربي ثائر يرفض الذل و يناضل في سبيل الوحدة و الحرية و الاشتراكية. العصريات يخرج أطفال أكبرهم بعمر العاشرة مسيرة على البسكليتات و يهتفون <<بالروح بالدم نفيدك يا بشار>>، <<طز فيكي حرية>>، <<شبيحة للأبد لاجل عيونك يا أسد>> . حفيد الرفيق البعثي «الثائر» يقود بسكليتته مع المتمسيرين و يشارك بحماس.

٦
مؤامرة في الظلمة

في مصياف، لا غاز ولا مازوت؛ يطبخون على الكهرباء. أصبحت الكهرباء مقطوعة في أغلب الأوقات؛ لا بأس يطبخون على الحطب و يتنورون على ببور الكاز. خلص كاز الببور منقلب عالشمعة. عندما ينقطع الشمع سيزداد عدد المقتنعين بضرورة الثورة وسيبقى الآخرون صامدون عالعتم في وجهه المؤامرة.

٧
قصور وقبور

في وادي العيون، <<الأسد في القصور وأبناؤنا في القبور>> شعور عام لا يجرؤ أحدٌ على الشعور به! هل هذا التغير في «المزاج العام» ضوء في نهاية النفق؟ ربما.. ربما هو أيضا قطار آتٍ ليفعسنا جميعاً!

٨
صور

بقايا صور مرشحي مجلس الشعب تشوه أغلب الجدران في طرطوس، صور القائد تملأ الطرقات، مع عبارات مثل «سوريا بخير» طبعاً، و «نظرتك ترعبهم» و «هيهات منا الهزيمة»، و «إياكم و سوريا» مع إصبع الاسد تشير للناظر. على الكورنيش إضافةً للصور التقليدية هناك علمان لروسيا و الصين و صورة ساخرة من «الجيش الكر» و صورة لـ«بو علي بوتين».

٩
زوبعة قومية

في صافيتا، قوميون سوريون فوجئوا أنّ الشعب السوري ليس كما يتخيلونه، ما زالوا يعرفون أنفسهم كمعارضين للنظام ولكنهم مؤيدين لبشار الأسد لأنه رجل المرحلة، ومع الجيش العربي السوري ضد المؤامرة. يرددون ببغائية أدبياتهم التي لم يضف عليها حرف واحد بعد استشهاد الزعيم، يتحدثون عن «النهضة الاجتماعية» و «الطاقات المخزونة في الأمة» و الأجمل من كل ذلك عن «يهود الداخل»؛ هذا المصطلح خاص بالقوميين ولا يستخدمه غيرهم!

١٠
حكي نسوان

في صبحية للنسوان تتحدث أم بحرقة عن ابنها الذي يخدم في الجيش، تكذب بشأن بكائه على الهاتف وتقول أن معنوياته مرتفعة، تتحدث امرأة أخرى عن نقص المازوت وسرقة مسؤولي الحزب والبلدية له، تشتمهم و تشتم «اللي حطهن وخلاهن يتحكموا برقاب هالعالم»، تتحدث الثالثة عن قريبتها اللي أصيبت برصاصة طائشة في حمص. فيما تجلس أصغرهن مكتسية بالأسود و صامتةً تفكر بزوجها الذي استشهد في حمص ومستقبل الجنين الذي تركه في أحشائها.





صور من العالم الآخر- كانون الثاني ٢٠١٣

١
بالذبح جيناكم

أغنية «بالذبح جيناكم» التي نشرتها بعض الصفحات أصابت الناس بالجنون هنا. بهذا يعترف أحد المعارضين في حي الزراعة. ينفخ سيجارته بتوتر ويقول: «مين عم يروج لهيك شغلات؟ السعودية و الإخوان مين يعني!؟ والنظام هوي المستفيد الأول». يضيف الرجل: «هون كتير ناس فقدت الأمل بالنظام، بس قلال كتير اللي عندهن أمل بهالثورة، يعني الناس عالقليلة ٥٠٪ مو مع بشار الأسد بس أقل من ١٪ مع الثورة!». شلف صاحبنا نسبه و عليك أن تقرّ بها حقيقةً!

٢
حاجز طائفي

كورنيش جبلة، تقطع حاجز الفصل العنصري -عفوا الطائفي- لتلاحقك نظرات العناصر على الحاجز وتقول لك مستاءة: لماذا تغادر «منطقتك». بعد قليل تبدو آثار ضرب الرصاص واضحةً على كثير من أبنية السوق القديم، إضافة لعمليات البخ والبخ المضاد التي تملأ الجدران والتي لا يصعب التعرف على محتواها رغم كل محاولات الطمس.

٣
نظافة قميئة

الكراج الذي كان الساحة الأكثر اكتظاظاً في الأحوال العادية أصبح الآن شبه فارغ. منظره «النظيف» «الهادئ» يجعلك تشتاق إلى «الوساخة» و «الصخب»، إلى زفت تغطيه أوراق سندويشات الفلافل وأكياس البطاطا وبصاق شوفيرية بارمايا والزلو والبيضة وبساتين الأسد وأعقاب سجائرهم.

٤
شطرنج بالوكالة

يقول مثقف يائس: «نحن أحجار شطرنج، في أعلى الهرم العسكري، وسطاء الحرب، روسيا



وأميركا. لا مصلحة لهؤلاء «الملوك» في قطبي العالم بإنهاء الصراع وما يحمل معه من نفوذ. أما أسفل الهرم، فنحن بيادق مسحوقة اجتماعياً، غالبيتها شباب فقراء يشكلون أدوات الصراع الأساسية». لا يرى مثقفنا لنفسه أي دور في «لعبة الشطرنج» هذه !

٥
معضلة الاحتياط

يتحدث شابان عن معضلة الاحتياط، يقول أحدهم: «البقاء في البلد يعني الانخراط في الصراع، عدم الالتحاق بالجيش ليس حياداً، لا يمكننا أن نعزل انفسنا». يقول آخر عن سؤال حول إمكانية مغادرة البلد: «يا ريت فيني سافر، بس لوين؟ شو بدي اشتغل؟ لو معي مصاري كنت سافرت من زمان، بعدين ليكن هدول اللي نزلوا ع لبنان كمشوهـ... ». يقاطعه صوت الرصاص ملعلعاً في مكان قريب، تشييع شهيد جديد!

٦
خلصت

«المدينة المتروكة لمصيرها» ربما هو الوصف الأفضل لطرطوس في هذه الأيام، وجوم ويأس وحزن وتعب. يستيقظ الناس منذ سنتين وهم يحاولون التمسك بأمل واحد: «خلصت». لكن الأمل، وكل يوم، يتبدد مع أخبار الخطف الطائفي والذبح وقوافل الشهداء. معظم النقاشات هنا ترتطم بحائط مسدود: الطائفية !

٧
شهداء

صور شهداء الجيش والأمن على طول الطريق، شهداء؟ هم «فطايس» بنظر من لو قتلوهم لدعوهم فطايس أيضاً، لا يهم كثيراً على أي حال، لقد ذهبوا وتركوا وراءهم أباً وأماً، وربما زوجة وأبناء، تركوا أصدقاء يذكرونهم، تركوا حياتهم وذكرياتهم في قراهم وذهبوا، ذهبوا ولن يعودوا. النظر في عيونهم يسبب حزناً عميقاً يقتل الرغبة بإيضاح أي شيء. ما يزيد الشعور بالاختناق رؤية قاتلهم الحقيقي يحتل زاوية بعض الصور بعيونه الزرقاء الفارغة من أي معنى.

٨
على التخوم

في تلكلخ تجلس أم أكرم في منزل يطل على «أعدائها» في القرى العلوية المجاورة. تراهم ولا يرونها!. عيونها متشحة سواداً. مثقلة بالهمّ والخوف. ليس لديها الطاقة لوضع حجابها، فتمسك بفوطة المطبخ وتضعها على رأسها لا مبالية. تتذكر زوجها وابنها و تبكي بصمت.«لم اعد أحتمل البقاء هنا.. لم أعد أحتمل» تقول في نفسها.

٩
على التخوم أيضاً

تتحدث رهف الصيدلانية أنها عادت إلى نقطة الصفر في حياتها. خطف زوجها أشرف طبيب الأسنان في المعضمية وانقطعت أخباره منذ شهور، منزلها في ساحة عروس الجبل في حي الـ٨٦ بالمزة دمر بالكامل في الانفجار. وهي تعيش عند أهلها مجدداً في منزل من غرفتين. لكن هذه المرة مع طفلة صغيرة.

لو استطاعت رهف أن تشارك أم أكرم من تلكلخ فنجان قهوة، لربما كانت السيدتان قد تآنستها وتشاركتا همومهما ومأساتهما! .

١٠
لكي أكون حراً

في مكان ما في هذا الساحل، كاتب هذه السطور مثقل بكلماتٍ وأشباه عبارات نقّب عنها، اقتنصتها من الناس ومقالات الإنترنت، غربال الذاكرة يفشل كل محاولته للتذكر المستديم. يعود إلى مسوداته: سطور غير مكتملة، رؤوس أقلام مدونة هنا وهناك، مقتطفات و«سرقات». صوت داخلي يصيح به «لا تتعب نفسك، كلماتك أصبحت معروفة للجميع حتى قبل أن تتفوّهَ بها، حفظوك وحفظوا ما تقوله رغم أن شيئا منه لم يستقر في دماغهم». «لماذا تفعل كل هذا؟ لِمَ؟ لِمَنْ؟» يسأل نفسه. «لكي أكون حراً». «لقد كنت أكثَرَ حريةً فيما مضى» يقول شيطانه الداخلي .





صور من العالم الآخر- شباط ٢٠١٣

١

مميزون عصيون على الكشف

الخيارات ضيقة هنا. إمّا أنْ تكون مؤيداً وفرداً في القطيع أو تعارض وتتعرض للتشبيح والتهميش الاجتماعي، هناك حياديون ووسطيون ومعارضون «في قلوبهم!» ابتدعوا سلوكاً ازدواجياً ملتبساً يمكّنهم من الوقوف والتعامل مع يومياتهم. هؤلاء لا يميزون أنفسهم عن القطيع لأنّهم بحاجة لحمايته، ولكنهم يبرؤون أنفسهم من كل خصاله، لا يميزون أنفسهم ويريدون من الآخر الذي ينظر إلى القطيع من الخارج أن يميزهم!

٢

حيجي بقا

في بيت تراب مهجور وسط قرية نائية في جبلة: يجتمع في المساء بعض الرجال، يتحلقون حول طاولة خشبية مستطيلة أمامها صوبة حطب تلتهم «القرامي» التي يضعونها بها. على الحائط برواز خشبي معلق يحوي صورةً قديمةً لشيخ القرية مرسومة بالفحم. «أبقا في شغل، مابقي عنا غير التطوع أو التسجيل باللجان، كيف بدنا نطعمي ولادنا؟» يقول أحدهم. يصرخ آخر ويهوي على الطاولة بقبضتيه المتراخيتين: «بقطع إيدي وبشحد عليا ولا بشتغل مع هالزعران، قال لجان شعبية قال، وعن جديد جيش دفاع وطني! حيجي بقا!».

٣

تذمّر

الغاب، منطقةٌ «على الهامش» سياسياً واجتماعياً، سكانها انقسموا على القضايا الراهنة ولم يتصالحوا مع ذكريات أحداث الثمانينات. تجلس فتاة عشرينية مع والديها حول الصوبة الفارغة من المازوت، تقضم ما يتقشر من جلدٍ مات حول أظافرها وتفكر في مصير خطيبها العسكري في مطار «تفتناز» والذي لم يتصل منذ أكثر من أسبوعين. «الله يحميه ويكون معو» تقول أمها المتشحة بالسواد حداداً على أخيها الذي استشهد في درعا منذ عدّة أسابيع، ثم تنظر إلى زوجها بطرف عينها مدركةً حساسية الموضوع وقائلةً «لأيمت بدن يضلوا هالشباب يموتوا هيك».

٤
ذبح وفعس

بانياس: موظف خمسيني يريد أن يوفّر أجرة المكرو التي أصبحت «محرزة»، يصعد متعباً طلعة المركز الثقافي، يعرف هذا الطريق جيداً ولم يألفه قط، عَبَرَه صعوداً ونزولاً، متريثاً وعجولاً، مئات المرات. تطارده قريته، ينتظر يوم الخميس لكي يترك المدينة الملوثة و«يشد طلوع». لطالما كان ساهياً في الطريق يفكر في شيء آخر، الفيديو الذي يصور طفلاً يذبح عسكرياً بالساطور لا يغيب عن باله، الفيديو له طعم مختلف هذه المرة، للمذبوح وجه: هذا العسكري ابن الضيعة!

لو شغل فيديو «الدعس» في البيضا قبل سنتين باله كما شغله هذا الفيديو وفعل شيئاً ما وقتها، ربما لما ذُبِحَ ابن قريته، طبعاً هو لا يفكر كذلك الآن، هذه خيالات الكاتب لا أكثر!

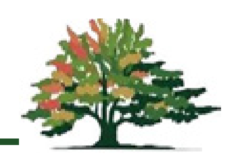
٥
خَرَف العجائز

قرية في جرد القدموس: ختيار في يده عصا ترافقه في المشي. يضعها جانباً ويجلس على كرسي حديد متصدّع في قهوة «أبو حكمت» على ضفة نهر في وادي القرية. يتهكّم على الجميع. يُلقي النكات عليهم بملامح وجه ثابتة. يسخر من أهل القرية، من «الدولة»، من الطوائف. لا يرحم أحداً. «و الله شو ما عملوا السنة فينا أبقصروا» يلفظها مازحاً، فتعلو قهقهات بعض الجالسين ويصمت بعضهم الآخر مفكراً!

٦
روسيا مع الجائعين

عائداً من العمل في أرضه، يسمع سلمان قرقرة أمعائه الخاوية فيشد حزامه ويلكز جحشته لتسرع في الخطو. يدسُّ يديه في جيبي معطفه البالي اتقاءً للبرد. يصل إلى البيت فيرى امرأته تنفخ بيأس تحت «مقلي الفخار» ولكنّ الأغصان الخضراء التي اقتطعها منذ أقل من أسبوع ترفض أن تشتعل. يكتم غيظه لأنّه رغم جوعه الشديد سينتظر لساعةٍ أخرى حتى تشتعل النار ويجهز الطعام. الكهرباء مقطوعة، يشغل الراديو القديم ليسمع في أحد الإذاعات الوطنية أن لافروف يؤكد على «حقوق الأقليات». «روسيا ما زالت معنا» يطمئن نفسه.





٧

راح الضنا

تجلس أم أحمد - ختيارة الضيعة - خلف المدفأة تراقب الحطب الذي يحترق فيها ببطء، تدمع عيناها وهي تقول لحفيدتها الأرملة بعد استشهاد زوجها: «لما كان العصملي يجي يدور عولادنا لياخدن أيام سفر برلك كنا نخبيين بالجبال بين الوحوش المهم مايروحو عالموت، هلا يا حسرتي يا ستي ... بشار بيعرف أسماء ولادنا ومسجلين عندو كلن بيطلبن بالاسم أيمت ما بدو ...راح الضنا ... راح الضنا».

٨

وعي عابر للقارات

طرطوس .. مدينة تعيش على الشائعات التي لا تعرف أين تولد وأين تموت، الصواريخ التي أُطلقت من طرطوس هي موضوع الشائعات في هذه الفترة. في مقهى الهافانا يتحدث أحدهم عن القوى العالمية اللي عم تشتغل، وعن الحرب الدولية على الأرض السورية. يزيده آخر ويشرح بإسهاب عن مصالح الدول الكبرى ويحلّل بـ«المنطق الطرطوسي» ما يجري في أروقة السياسة العالمية، يتحدث بمعرفةٍ «عميقة» عن روسيا والصواريخ الروسية العابرة للقارات. «معرفته» ذاتها لم تستطع عبور الحارات لتصل إلى حي الساحة وتفسر أسباب تظاهر أهله بغير الطائفية و العمالة!

٩

لا أريد التخرّج ولا الموت

طارق شاب يدرس في جامعة البعث في حمص، مكروه من أبناء قريته ومتهم بالتخاذل من أصدقائه الحماصنة، ناقمٌ على كل شيء؛ يلعن النظام، ويلعن الثورة، ويلعن المعارضة الفاشلة، ويلعن الشعب و يقول أنّه طائفي تحركه أحقاد عمرها أكثر من ألف عام. في القرية الآن ثلاث شوادر، في ظل هذا المشهد الضاغط والخانق يدرك طارق أنّه لا مجال لخيارات أخرى، و أنّ تأجيل التخرج لأن «حمص مو رايقة» حجة لن تنطلي على الكثيرين بعد الآن.

١٠
فقراء صامتون

في قرى الساحل السوري أناس مغمورون، منزوون على أنفسهم، شباب «الصفحات الوطنية» الذين يمارسون الابتذال بأرخص صوره لأفراد عائلة الأسد لا يعبرّون عن شيءٍ حقيقي هنا. قُرى تعيش على هامش بلد يتفتح، على مر سنتين أصبح لكل منطقةٍ ثائرةٍ في سوريا رصيدٌ غنيٌ من الذكريات والحكايات، لكل مدينة وقرية ثائرة طابعها الفريد وثقافتها وفنها وإبداعاتها الخلاقة التي عمل النظام على كبتها في سبيل «الرسالة الخالدة» و«القائد الخالد». على هامش كل ذلك فقراء لديهم الكثير ليروونه ولكنّهم صامتون، لا يثقون بأنفسهم ولا بالآخرين. قد يأتي يوم يتجرؤون فيه على الكلام، قد يأتي يوم يتحدثون فيه فيلفتون النظر إليهم، حينها قد يكتشفهم الآخرون ويساعدونهم على اكتشاف أنفسهم.

صور من العالم الآخر- آذار ٢٠١٣

١
النظام/الطائفة

تجلسُ مجموعةٌ من الشباب على كورنيش البحر، يتبارون في إظهار مدى الاهتمام و المتابعة لأحداث «الأزمة» السوريّة، يحلّلون تقدّم العمليات العسكريّة الّتي «يقومون» بها، وتطورات السّاحة الدولية الإيجابية على إثر «صمودهم» كلّ هذه المدّة، وكلّهم يتوقعون «خروجهم» من الأزمة مع حلول شهر آذار كما قال ناصر قنديل. تفصيلٌ تافه كهذا التماهي اللامنتهي بينهم و بين النّظام أصبح روتيناً يومياً مسلماً في حياة الناس هنا، يمرُّ كل لحظة دون أن يستدعي أيّة اهتمام، يمرّ بنفس التلقائية الّتي يستنكر فيها الشباب ذاتهم تصريحات لإحدى الطائفيين الّذين يماهون بين «النظام» و «الطائفة».

٢
عضام الرقبة

أصبحت تسمع اليوم من خلف الأبواب المغلقة همهماتٍ خجولة تتساءل «بلطف» عما حدث في مدرسة المشاة وغيرها من المراكز الّتي خسرها «جيش الوطن». كانت الصدمة

كبيرةً عليهم بحق، العساكر والضباط المحسوبين على بيت الأسد وملحقاته نجوا بأعجوبة (ما)، بينما تُرك البقية من «العوام» لمصيرهم عند «الإرهابيين». أبو أحمد الذي فقد الأمل من نجاة ابنه العسكري الذي لم يتصل منذ أكثر من شهر يقول لزوجته قبل أن يخلد للنوم: «و الله ما طلعنا كلنا من عضام الرقبة يا مرا».

٣
رافضي

يحاول سليم -المعارض الخمسيني- بجهد الحفاظ على آرائه النقدية. «طبعاً هناك وصمة عار إذا رفض ابن الضيعة الالتحاق بالاحتياط. إجمالاً الخيارات محدودة بخاصة بالنسبة للفئات الفقيرة». حيدر شاب عشريني يعمل في مغسل للسيارات ويعيل والديه العجوزين، رفض الالتحاق بالاحتياط «شو بدي اعمل؟ خلص! تجي الشرطة العسكرية تاخدني عالسجن، ببساطة لست مؤمناً «بالقضية» ولست على استعداد للموت». «يتم استخدامنا» يلفظها بغضب، معبّراً عن ثقل الضغوط الاجتماعية المتمثلة بخطاب «حماية الوطن والتصدي للمؤامرة».

٤
بانياسان

بانياس، المدينة التي شهدت على أول الشروخ بين الطائفتين «المتعايشتين». مدينة كانت تعيش «وحدة وطنية» على الطريقة البعثية سرعان ما تعرت ليظهر أن «الحوار الوطني» الحقيقي هو حوار الطائفية والكراهية. في البيضا لا تزال المرارة حاضرةً في وجوه وقلوب أهل القرية، قهر من الجيران الذين دعوسوهم؛ جرحٌ لن يندمل بسهولة. في بانياس الأخرى «بانياس الأسد» ما يزال مشهد ذبح نضال جنود حاضراً، ليس من السهل نسيان ذلك في ظل مشاهد التشييع اليومي لأبناء قرى بانياس.

٥
لا تموتوا هكذا!

على طريق ترابي وعر وُضِع شادر عزاء الشهيد. يشير رجال القرية بحسرةٍ إلى والد الشهيد الّذي يبدو للناظر امتداداً للمشهد ككل، رائحة القهوة و الدخان العربي، تلاوة القرآن،

وهمهمات المعزّين. يبدو الأب متهالكاً على كرسيه، منفصلاً عن كل التفاصيل الأخرى، لا يرفع ناظريه عن صورة ابنه في مدخل الشادر مرتدياً البزّة العسكرية مبتسماً وعيونه تلمع. إلى جانب الصورة باقةُ ورد كتب عليها: «إلى جنان الخلد ... فرع الأمن السياسي».
لا تعرفُ كيف تصف و ماذا تقول، مزيج من مشاعر عارمةٍ تشتعل في النفس، مشاعر تستحيل تافهةً فورَ التفكير بكتابتها. الكتابة هنا محضُ ادعاء ولن تشفي من الإحساس العميق بالعار، كل ما تشتهيه أن تصرخ في وجه الجميع «لا تموتوا هكذا!».

٦
مشايخ النظام

بو سميعيل مساعد في المخابرات الجويّة سابقاً وشيخ الضيعة وتقيّها ووَرِعُهَا حالياً. بالرغم من التفاف كثيرين حوله إلاّ أنّ البعض يتأفف من أسلوبه السّوقي كما يصفونه بتردد. يُراجع كل صباح قائمة الشهداء الّتي يجب التعزية بهم بما أنّه من وجهاء المنطقة. مستفيداً من هيئته الأمنية والدينية يشرح في خيم العزاء للحضور البُعد العقائدي لهذه الحرب «إلن عم يحاربونا من أيام سيدنا علي شو الجديد هلق مفكرين؟»
يصر هذا الأبله على اغتيال الطائفة مرتين: مرةً من خلف كرباجه في الفرع، ومرةً تحت عباءة الدين في تعازي ضحايا المرّة الأولى!

٧
شباب القائد

حول طاولة في مقهى صغير يجلس مجموعة من الشباب العاطلين عن العمل، أحد شباب الشلة عندما أخبره موظف شعبة التجنيد أن اسمه في قوائم الاحتياط هرب إلى لبنان قبل أن يأتي سحبه، الشاب الآن «خائن للوطن» بنظر الناس هنا، يشتمه أحد أصدقائه الذي تطوع حديثاً في جيش الدفاع الوطني، لا أحد من الشباب يجرؤ على الدفاع عنه رغم أن عدداً لا بأس به منهم أوقف تخرجه في الجامعة على مادة هرباً من «خدمة الوطن»، بقية المشهد هي أن أحد الشباب مصاب في كتفه وتنتهي نقاهته بعد أيام يعود بعدها إلى حمص ليتصدى للمؤامرة هناك.

٨
أحرار من زمن آخر

شهداء للجيش والأمن يصلون يومياً بتوابيتهم من كافة المحافظات، خيَم العزاء أينما ذهبتَ، في طرطوس تدرك أن المنكوب قطعاً ليس أحد الأطراف على حساب الآخر، مهما بدت طرطوس قلعة من قلاع الأسد، الفقر يبقى سائداً وكذلك فقد العائلات لمعيليها. ربما الفرق هنا أنهم لا يرون موت شهدائهم بالعين المجردة. لكل شهداؤه، صور الشهداء تملأ الشوارع و«أحرار طرطوس» يرفعون على الفيسبوك لافتات تحيي «جبهة النصرة» و يتوقعون من الناس التجاوب معهم!

٩
إنسانية مقموعة

تستغل حنان ساعات غياب زوجها لتشاهد قناتي «الأورينت» و«الجزيرة»، فبعد آخر «جرصة» بالحارة عندما ضبطها تشاهد قنوات «سفك الدم السوري» أصبحت ساعاته خارج المنزل هي المتنفس الوحيد لحريتها «التلفازية».
حنان تقضي هذه الساعات بالبكاء على أبناء صديقاتها في تلكلخ ممن استشهدوا الشهر الماضي، وعلى أبناء المناطق المنكوبة والنازحين حتّى على عناصر «الجيش الحر» تبكي حنان على كل شيء. تراقب صوراً يبثّها ناشطون من حلب، تقول بغصّة:
«لو نص هالصواريخ نزلت بتل أبيب كانت تحرّرت فلسطين من خمسين سنة».

١٠
مراجعة للذات

شاب يتصفح الفيسبوك، يعود إلى كتاباته في بدايات «الأحداث» و يفاجأ بما كان يكتبه، <<ما هذا الهبل؟!>> يقول في نفسه، << صفحة الثورة القطرية! ماذا كنا نفعل!>>، <<الأسد أو نحرق البلد>> يقرأ؛ <<حرقت البلد وما زال الأسد، ماذا جنينا؟>> يفكر في نفسه. يتذكر أصدقاءه الذين استشهدوا في معركةٍ يحس - أخيرا! - أنها ليست معركته. يشعر بيأس من النظام، يتساءل هل هناك أمل؟ في الثورة! لا يمكن، الثورة لا تذكره سوى بالخطف والذبح و السلفية، يزداد يأسه عمقاً. يذهب إلى المربع الأحمر في زاوية المتصفح، يغلق الفيسبوك و ينام ليستيقظ مصاباً بالخيبة و انقطاع الأمل و النسل!

صور من العالم الآخر- نيسان ٢٠١٣

١
سوء تفاهم

«ماعاد عمإفهم عليه!» هكذا يصف محسن الشاب الجامعي المتحمس سيادة الرئيس، يتدارك مصححاً أمام رفاقه: «بيجوز عادي لأننا مامنعرف اللي بيعرفو هوي بيجوز عندو حكمة أكتر منا» لم يقتنع كثيراً بما قال.. منذ يومين لم يستطع النوم، توقف عن ممارسة الدعم النفسي لصمود شعبنا من خلال صفحته على الفايسبوك. محسن في حيرةٍ من أمره، لماذا فعل السيد الرئيس هكذا بالجنود في حلب و إدلب؟ لماذا لا يهتم السيّد الرئيس بالمخطوفين منهم؟ مو حاسس سيادتو إنو البلد خربت عالآخر ليش ما عميساوي شي؟. أسئلةٌ كثيرة تغيب لفترة أمام صيحات «شبيحة بشار» عند دوار هارون، ولكن ربما قد تعثر على أجوبة.

٢
انحطاط وطني

رجل وفرت له «الأزمة» فرصة عمل تناسب شخصيته، يزور خيم عزاء الشهداء، يحاضر بالمعزين، يمجّد «القائد»، يسرد فصول «المؤامرة» و يدعو «الجيش العربي السّوري» للحسم. لديه صفحة على الفيسبوك أيضاً يحصد فيها اللايكات للقائد والجيش من شبان يبحث أغلبهم عن أي حجة تجنبهم الالتحاق بالخدمة أو الاحتياط. وصل الانحطاط عند هذا «المثقف» إلى درجة تخوين أهل أحد الشهداء والمزاودة عليهم بمحبة الشهيد فقط لأنّهم منعوه من ممارسة طقوس التقديس لوليه الأسد في خيمة العزاء.

٣
انتقام

على حاجز حريصون قبل بانياس بقليل يتوقف سرفيس اللاذقية- بانياس، في المقعد الأخير عائلة حلبية مكونة من أم وابنها ابنتها، بعد رؤية الهويات يمد عنصر يده من الشباك ويمسك بالصبي الذي لم يتجاوز الخمسة عشر عاماً من رقبته «شو ولك عرصا ؟ كنت عم تجاهد؟» ، «و أنتي يا شرموطة..وينو زوجك؟ بالجهاد؟» يقول عنصر آخر يقف عند الشباك المقابل للمرأة الشاحبة. الفتاة الصغيرة لم تستطع حبس دموعها عندما تذكرت والدها الذي غيبته قذيفة هاون طائشة سقطت أمام بيتهم ببضعة أمتار.

٤

وطن خمس نجوم

الطفلة الحلبية التي مرت على حاجز حريصون ترسم في نادي الرسم المجّاني للأطفال، يقترب منها شاب متطوع ويراها ترسم علماً بثلاث نجوم، سبق وأن حصلت مشاكل عندما رسم أطفال نازحون العلم السابق بينما رسم الأطفال الآخرون علم النجمتين، تقرر بعدها تجنب رسم الأعلام. قال الشاب للصغيرة بتهذيب بالغ: «أنا بحب الأخضر، ارسميلي نجمتين خضر جنب النجوم الحمر». نظرت إليه بابتسامه ثم رسمت نجمتين وقالت: «هيك أحلى شي». طلب منها أن تهديه رسمتها فأعطته إياها بكل محبة. عاد الشاب إلى بيته وألصق رسمة العلم ذو الخمس نجوم بجانب صورة ابن عمه الشهيد وازدادت قناعته أكثر من قبل بأننا لن نبني وطناً «خمس نجوم» إلا بالمحبة و التسامح.

٥

ثورة، ومؤامرة على الحب

قبل الثورة كانا أكثر من صديق وصديقة، حاولا في البداية الوصول إلى اتفاق ولكن الشرخ كان يزداد اتساعاً بعد كل نقاش، بعد أن اعتقل «المندس» قررت «المنحبكجية» قطع علاقتها به. بعد سنتين يتذكر كل منهما وحيداً الأيام الجميلة التي قضياها معاً، يتمشيان على المكسر في الشاليهات صيفاً، وعلى الكورنيش شتاءً، يشتري لها غزل البنات، وتهديه قصيدة لنزار قباني، يتبادلان المزاح الذي لا يفهمه غيرهما. «هل تستحق الحرية كل ذلك؟» سؤال يدور في رأسه، ويقابله في رأسها نفس السؤال مع استبدل الحرية بـ «الوطن» و«التصدي للمؤامرة» وتعابير من هذا القبيل!

٦

خلصنا وماخلصت

في سرفيس طرطوس الدريكيش، يتبين أنّ السائق الملتحي يعرف أحد الشبان الذين استشهد بالأمس. يدور نقاش مع راكبين في المقعد الأمامي. يقول أحدهما: «لأيمت بدن يضلوا يموتوا هالشباب؟ مين ضل ما طلبوه عالاحتياط؟!». يهزّ الراكب الكهل برأسه آسفاً و يقول له «لما بتصير القصة دبح عهالوية الواحد بدو يروح.لكن شو؟! منقعد نتفرج وننتظر لحتى يوصلوا ع ضيعنا؟». يستدرك: «عدين مو مطولة، خلصت». يرد الشاب الآخر: «خلصنا ولا كانت تخلص».

٧
اعتراض على الطريقة البعثية

يعثي متقاعد يفكر بينه وبين نفسه بتفصيل مدفأة وإشعال الكتب فيها، ذلك أن الحطب عملة نادرة هذه الأيام. الناس يسطون على أشجار الأحراج بالمناشير والفؤوس، وهو بغض النظر عن عدم قدرته البدنية يعترض على هذا السلوك. اعتراضه هنا لا يختلف كثيراً عن اعتراضه على «أخطاء» النظام، أسلوب الاعتراض هنا هو ذاته أسلوب الاعتراض المسموح به في سوريا البعثية «سوريا الأسد».

٨
قهر شيوعي

معتقل سابق من رابطة العمل الشيوعي عاد إلى بيته متشائماً بعد يوم قضاه في وادي العيون، الناس -و حتى الوجهاء منهم- هناك يتحدثون عن التقسيم ويقولون أنه ربما يكون حلاً، ويشتمون بالطبع المعارضة العلوية التي اجتمعت في القاهرة لأنها طائفية وتمهد للمحاصصات الطائفية! يمسك قبل أن ينام كتاب الأعمال الكاملة لمحمود درويش ويفتحه لا على التعيين، يكون حظه قصيدة «هنالك عرس على بعد بيتين منّا»، يتذكر مشاركته في اعتصام ساحة العاصي قبل سنتين تقريباً، تخفق بعدها محاولات اليساري الماركسي لفسير القصيدة بشكل غير طائفي، يقرأ في النهاية « فلننه طقس جنازتنا كي نشارك جيراننا في الغناء». يغمض عينيه على وجع عميق وينام كما كان دائماً: مقهوراً!

صور من العالم الآخر- أيار ٢٠١٣

١
صمت الرصاص

فتاة تراقب من النافذة جنازة تتجه إلى مقبرة القرية، شباب «اللجان الشعبية» يرددون <<شهيد ورا شهيد..غير الأسد ما منريد>> و<<الله محيي الجيش السوري>> على وقع أصوات الرصاص. عدد المرددين وراءهم لا يتجاوز أصابع الكف. تلمح الفتاة والدها وأخاها يسيران

بصمت في الجنازة. عدد الذين يطلقون الرصاص أكثر من عدد الهاتفين، إطلاق الرصاص هنا ربما هو الوسيلة الوحيدة للتعبير عن الحزن والغضب والسخط.

٢
عدالة

يصرّ أبو أحمد على البقاء -على الأقلّ- كما كان قبل الأزمة، لا يريد الكذب، لن يكون مع الثورة أبداً، «لم يخلق لثورة فكيف إن كانت هكذا» كما يقول دائماً.
قاطع الكثيرون في المدينة أبو أحمد لأنّه علّق يوماً على قصة جاره الّذي عاد من حلب بعد أن عاش فيها ٢٠ سنة، يروي جاره كيف قام المسلحون وأكثرهم من أهالي حيّه بمصادرة كل محلاته و تهديده بالمغادرة و إلا؟؟ يدفع أبو أحمد الآن ثمن ما قاله: «حلال عليون، أنا لوكنت محلن ماعملت أقل من هيك، شبنا ولك بو محمد، شبنا ولك بو ياسر مالا الشغلة زمان نسيتو قديش كنا نحكي كيف عميسرق هالزلمة رزق العالم بحلب كيف عميهددن و يبتزن بولادن لأنو بيشتغل مع الأمن ...هلا صار القط بياكل عشاه، وهالبشر اللي عمل فين مانن خلايق الله. رجع الحق لصحابو».

٣
من يحمي من

صورٌ كثيرة لـ «قائد الوطن» رفعت في طرطوس منذ بداية الثورة، صوره بأزياء و وضعيات مختلفة، أغلب الصور تقدمة التجار والمسؤولين وغيرهم من الانتهازيين. الآن تطغى صور الشهداء على صور «القائد»، لكنّه لم يغب عن التصاميم الجديدة أيضاً. فغالبا ما يحتل «القائد» أو أباه «الخالد» أو كليهما معاً زاوية في صورة الشهيد. من يحمي من؟ و من يستحقّ أن يفنى لأجله شعب بأكمله؟! أسئلة قد تتكون في الرؤوس ولكن من يتجرؤون ويقولون ما يفكرون به قلّةٌ هنا.

٤
خليني موت قبلك

يبتسم «أبو علي» العجوز الّذي يصرّ على فتح دكانه وسط المدينة بالرغم من تقدّم سنّه، يلقي بنظرةٍ على حفيده الشاب المتحمّس «وطنياً» والمتطوّع حديثاً في جيش الدّفاع الوطني،

يلكزه بعصاه ويشير له إلى صورة قديمة لبشار الأسد على الجدار المقابل، يغمزه و يقول: «عتقت كتيير هالصورة و لك جدي ما؟ بعدين الموديل كلو بطلت موضتو مو هيك بيقول جيلكون؟» تدمع عيناه ويتابع «خليني موت قبلك ولك جدي وحاجتك زعرنة». ينظر إليه الشاب بنظرة شزرة ليخبر أمّه لاحقاً أنّ والدها بلّش يخرّف.

٥

شو أوّل صاروخ !

مع عودة الصيف تجتمع شلة شباب على إحدى الأسطح لتلعب الشدّة وتدخّن الأرغيلة وتتسابق في إلقاء النكات على الصاروخ الّذي تابعوا بشغف كيف انطلق من إحدى قواعد الصواريخ القريبة أو البعيدة -لا يدرون- عن المدينة. يتساءل أحدهم فيما بدا أنّه لحظةٌ نادرة من «الصحو» أين سيسقط هذا الصاروخ، وتتنوع الإجابات تبعاً للتحليل الاستراتيجي لكل منهم: حماة، دير الزور، حلب، درعا.. يقاطع أحدهم هذا النقاش: «خلصونا بقا شو أول صاروخ ... رجعونا عاللعبة».

صور من العالم الآخر- حزيران ٢٠١٣

١

خوفْ

اختلّت العلاقة بين حسن وعائلته منذ رفض المشاركة في جنازة أحد الشهداء المحليين لأنّه -و كما صاح بوجه والده حين حاول الضغط عليه-: «ضابط أمن مجرم فايحة ريحتو وبرقبتو دم كتير عالم».

حسن المعارض والمعتقل السابق يعاني الأمرين في قريته هنا. يشعر بالمرارة على كل هذا الدم المسفوك، يقضي لياليٍ طويلة لا يستطيع فيها النوم وهو يفكر بأقربائه «المسحوبين عالاحتياط». تدور الإشاعات عنه في كل القرية بحيث يبدو لمن يستمع لحديث اثنين عنه بأنّه المنسّق الأعلى «للمؤامرة»!

يعود والده من الدفن، يرميه بنظرة حادة بقول له بعصبية تخفي قلقاً حقيقياً: «يا ابن الكلب مو فرقان معي موتة هالزلمة غير لأن بطّل عندي حدا فيي إسألو عنك بس ياخدوك».

٢

بُعد نَظَر

عندما طُلِبَ محمد للاحتياط تأخر لأكثر من شهر حتّى التحق، البعض لم يحاول إخفاء اللوم أو السخرية من جبنه و قلّة «وطنيته»، حتى أمّه و أخوته لم يسلموا من التلطيشات!.
اليوم عاد محمد مكفناً بعلمٍ لوطن لم يقضِ في سبيله! شيّعه أهل القرية إلى مثواه الأخير بحزنٍ بالغ فمحمد كان من أكثر الشباب طيبةً و خلقاً. كان «تعّيب»؛ يعمل بشكل مستمر ومرهق لإعالة أسرة فقدت الأب، مع أمّ مقعدة وأخوةٍ أصغر منه.
تكشف الأم في اليوم الثاني للعزاء لماذا تأخر محمد بالالتحاق أمام إحدى جاراتها الّتي أعطتها يومها درساً بالتضحية في سبيل الوطن؛ محمد كان يعمل ليل نهار في ذلك الشهر ليجمع ما يكفي من المال لإقامة السبوع (الصدقة) عن روحه عندما يعود شهيداً دون أن تضطر أمّه لتقبّل إحسان أهل القريّة.
بصعوبةٍ تفهم جارتها ما تحاول أم محمد قوله بين الشهقات و الدموع: «لك في أم بيطلع من تما تحكي إنو إبنا عميشتغل ليدفع حق كفنو»!

٣

مَتّة

اتفق أبو أحمد وأبو طارق على اللقاء عصر اليوم ليذهبوا إلى الجبل لجمع مؤونة كافية من الزهورات لاستبدالها بالمتة، يبدأ أبو أحمد الحديث: «لك ترى لا تفكرني خفت من قصة الزرنيخ ها! بس شوف جبالنا ما أحلاها ليش لنخلي جماعة يبرود يستغلونا يا أخي، يهزّ أبو طارق رأسه موافقاً و ذهنه شارد مع زوجته الّتي استيقظت اليوم مع صداع يخشى أن يكون زرنيخ ليلة البارحة قد أحدثه.

٤

سَفَر

في بولمان طرطوس-دمشق تكاد تسمع أصوات القلوب المتسارعة باضطراد مع كل كيلومتر يقطعه البولمان بعيداً عن طرطوس، أفكارٌ كثيرة تدور بأذهان كل الركاب ويتعالى معظمهم عن الإفصاح عنها، الخطف، الذبح، القنص، أسماء الضحايا الّذين سقطوا على هذا الأتوستراد

اللعين، حتى أولئك الّذين اعتادوا السفر من الطلاب و العاملين في دمشق لن يعتادوا أبداً على هذه الجرعة الروتينية من الخوف.

٥

إخراج

نادر شخصيةً مشهورةً في القرية، لا يخاف التصريح الدائم عن رأيه في «سيادة الرئيس»، يصرّ دائماً أنّ سيادته سيذهب مع الريح ويترك من ماتوا لأجله لمصيرهم، شجاعته ولسانه البارع تثير حنق الكثير من شباب القرية المتحمسين وطنياً، يحاولون اقتناص الأحداث الطائفية وكل ما يسيء لصورة الثوار أو المعارضين للسخرية من نادر عن طريقها، وجد الشبان في الشهر الماضي صيداً ثميناً في أكل القلوب والإعدامات الميدانية، نادر هذه المرة يصمت من القهر، لقد ملّ هذه اللعبة الّتي لا نتيجة منها. الألم يأكل قلبه و يشعر بعجز راسخ يدفعه للضحك المتواصل. يشير الشبان إليه هازين أيديهم أنّه «جُن»، يعلّق أحدهم مازحاً: «آخرة كل المعارضين هيك».

٦

حُبّ

تحت شجرة الكرز، حيث اعترف لها بحبه للمرة الأولى يوم كانا في الثانوية، يحتضنها محاولاً تهدئة دموعها، يقبّل كفيها يحاول أن يعدها بأكثر ما يملك أن يعد به؛ سيعود بطلاً، سيكمل بناء منزلهما، سيرقص في عرسهما كل شبان القرية سينجبان «ابراهيم وسارة وحسن» سيزرع لها الجوري على نافذة غرفتهما كما وعدها منذ يومهما الأول، سيقطف لها كل يومٍ وردة ويغرسها بشعرها. تَسَوَّلَ ضحكتها بكل قوته .. يريد أن يسمعها بأقوى ما تستطيع وكأنّه كان يعلم بأنّها الصوت الوحيد الّذي سيبقى حاضراً عندما ينهمر الرصاص على الحاجز الذي سيقضي عليه خدمته الإلزامية.

أوصاها فيما أوصاها أن تطبع صورته الأولى الّتي أعطاها إياها على الجداريات الّتي ستعلّق له في القرية إذا ما عاد شهيداً. لا يعلم كم تبكي كلّ ليلةٍ تحديداً وهي تنظر لهذه الصورة.

٧
مشوار

التجوال في صافيتا قاسٍ جداً؛ هذا الكمّ الهائل من العيون المعلّقة على الجدران يصيبك بالجنون، مئات العيون، منها عيونٌ قاسية جداً، عيونٌ تحسّ بها خائفة، وأخرى غير عابئة، عيونٌ تسأل أسئلةً غريبة، وأخرى تثير فيك أسئلةُ أغرب، ما يقتل هو تلك العيون الحانية في صور الشهداء اليفعان، تحسّ بها تنفذ إليك تدغدغك تدفعك للبكاء والبكاء .. كما لو كانت عيون أطفالك.

٨
رَقصْ

يصرخ شوفير سرفيس طرطوس-القمصية بالركاب محاولاً إقناعهم بأن يركبوا «أربعات»، يفقد أمله وسط احتجاج واضح منهم، يلقي ببعض المسبات، وينطلق. أصبح الحرّ خانقاً مع قدوم الصيف، ما يزيد الجوّ «خنقةً» تلك الأغنية الّتي وضعها الشوفير: «لاقسم على ذو الفقار، الله وسوريا وبشار»، يتمايل الناس بهدوء على وقع اهتزاز السرفيس، وجوههم الخالية من كل تعبير تشرح كل المشكلة.

صور من العالم الآخر- تموز ٢٠١٣

١
خونة للأبد

يستيقظ محمود ليشاهد خبر «سقوط القصير» يعمّ الشاشات، يفتح حسابه على فايسبوك ليشارك أصدقاءه فرحتهم بعودة القصير إلى حضن الوطن. هنا في قرية محمود لايزال الناس يعيشون حقبة «يعيش الملك». التهليل وشعارات المرحلة والعقم الفكري المستمد من أفكار البعث ما زالت روتيناً يومياً. يعلم محمود ورفاقه أنّ القصير وأهل القصير لن يعودوا إلى «حضن الوطن» يوماً. أنّهم خانوا الوطن للأبد، خانوا سوريا الأسد، وطن الطغاة والعبودية كما يحبّ الماغوط أن يصفه.

٢
مَنْطِقْ

حسام شاب ثلاثيني من أولئك الشباب الّذين لطالما تبجّحوا بوعيهم لقذارة هذا النظام وظلامية رموزه قبل الثورة، وعادوا إلى رشدهم وفهموا المؤامرة وارتصوا صفاً واحداً إلى جانب القيادة الحكيمة بعد الثورة.

لا يتحرّج حسام اليوم من نسف مفهوم الثورة بأكمله خلال نقاشاته، يريحه جداً أن يقنع من يحاوره أنْ «لا أمل» و«لا مسؤولية تقع على عاتقه». بدهاء وخبث يبتسم حسام و يختم كلامه مع ابن عمه: «لتاخد فكرة عن الثورات وشو رح تجيب لهالشعب، رجاع لثورة ٨ آذار».

٣
غَرِيبْ

لم تفلح محاولات هادي المستمرة لإيجاد سبيل بديلٍ يجنّبه السفر إلى دمشق، الآن لا بدّ من حضوره الشخصي لإحدى الوزارات حتى يكمل أوراق تعيينه. هادي لم يغادر طرطوس منذ بدء الأحداث، لديه أفكار سوداوية كثيرة حول ما يمكن أن يحدث معه هناك.

اتفق مع سائق تكسي من «جماعتنا» ليقلّه هناك، يسرع الخطى في الشوارع المغلقة بالحواجز والعرق يتصبب من قميصه ذو الأكمام الطويلة الّتي تخفي بعناية نقشاً لـ «ذو الفقار» قد يغوي أحدهم بإيذائه.

يفكّر وهو يتأمّل وجوه الناس و كل هؤلاء العساكر في المدينة: «قد ما عبينا الشام بولاد جماعتنا، خلص الشام بطلت إلنا».

٤
مُنافِقْ

ينشر حسن (الناشط المحلي الطرطوسي) على صفحته على فايسبوك أخبار مظاهرات تقسيم أولاً بأوّل، يتطاير الزبد من كتاباته الحانقة تعليقاً على العنف المطبّق على المتظاهرين. منذ أيامٍ قليلة كانت صفحة حسن تحتفي بـ «فقس» قرية البيضا، و تهلّل لانتصارات الجيش السّوري. حسن اليوم يتعلّم أهميّة الحفاظ على حقوق المتظاهرين .. لكن في تركيا. حسن لديه حساسية من خراطيم المياه والغاز المسيّل للدموع، لكن لا بأس بالسواطير الراقصة على

رقاب أطفال سوريا، لا بأس بسيل الرصاص الّذي كان ينهمر فوق رؤوس متظاهري سوريا الأوائل. يعلّق حسن على أصحاب هذا الكلام هذا قائلاً: «الأمن كان بيعرف لوين بدون يوصلونا هالمرتزقة»!.

٥
ذُلّ

يستشيط ماهر غيظاً وهو يراقب احتفاء محافظة طرطوس بـ «أحمد سبايدر»، لا يكاد يصدّق عينيه وهو الّذي شارك في تنظّيم المسيرات الحاشدة على كورنيش المدينة وانبحّ صوته بالهتاف للقيادة والقائد. يشعر ماهر بالعجز والمهانة، «كيف تستضيف طرطوس عاصمة الشهداء هذه الحثالة!». يسرح في تفكيره ويفكّر طويلاً وطويلاً، ويصل في النهاية إلى التفسير الّذي يقنعه ويريحه: «لابدّ أن بعض الخونة في مجلس المحافظة ممن يريدون الإساءة لطرطوس ولشهدائها هم من يقفون وراء الدعوة والترحيب»، يتساءل كيف سيصل للسيد الرئيس ليخبره عما يجري على الأرض .. من وراءه.

٦
حِسْ مَسؤوليّة

يتابع أبو أحمد الأخبار العاجلة المتواردة على شاشة تلفزيون المنار حول التوترات الأخيرة في صيدا وطرابلس، الجيش اللبناني، الشيخ الأسير، توترات طائفية تشغل حيّزاً كبيراً من حديثه مع زبائنه في القهوة الّتي يمتلكها كلّ يوم.
شغف أبو أحمد وزبائنه وكثيرون هنا بالحدث اللبناني وتبلّدهم المستفز فيما يخص الحدث السّوري، يجعلك تود لو تصرخ في وجوههم: «اعتبروا ريف دمشق محافظةً سورية، شأنها شأن لبنانكم!».

٧
شعبيّة

في قهوة الهافانا في طرطوس يتباحث أربعة شباب في شؤون «الأزمة» بعد انتهاء برتية الطرنيب. يتساءل أحدهم عن النسبة التي سيربح بها السيد الرئيس في انتخابات ٢٠١٤. يقول

أحدهم أن شعبيته قد انخفضت وأنّ النسبة قد لاتتجاوز التسعين. يعلق آخر «شو ٩٠! يا أخي انخفضت شعبتو... كتيرانخفضت... بتوقع شي٦٠-٧٠ مو أكتر» يقول الرابع الذي تطوّع في اللجان مؤخراً «أنا من جهتي نازل ع بانياس و اللي بصوت (لا) بعرف شغلي معو».

صور من العالم الآخر- آب ٢٠١٣

١

أبو خضر

لأبو خضر ثلاثة أبناء في الخدمة الإلزامية التي لا تنتهي، وراتبه الوحيد ما عاد بالإمكان أن يسد رمق العائلة . كاكثر، التحق بصفوف «جيش الدفاع» على أساس أن يبقى في منطقته لقاء راتب ١٥٠٠٠ ل.س، وبعد أشهر قليلة طلبوا منه الالتحاق بقافلة للذهاب لحلب، رفض متحججاً بعمره الذي تجاوز الـ ٤٥ وعدم خبرته العسكرية، ولوجود أولاده الثلاثه بالجيش وهو المعيل الوحيد لباقي الأسرة. عادوا بعد أسبوع وطلبوا منه أن يذهب إلى حلب،كرر رفضه، فجاء الرد: رد الرواتب التي استلمتها!. صاغراً انصاع وركب الشاحنة، ولم يعد!!! أبو خضر انضم إلى قافلة الضحايا المجهولين بلا هوية في معركة عبثية دفاعاً عن مجد طاغية.

٢

ثَقَافِة

يشعر أمجد الطالب الجامعي المستجد في جامعة تشرين بشيء من النشوة وهو يدرس لامتحان «مادة الثقافة»، انشغاله بإدارة الصفحة الوطنية الّتي أنشأها مع بداية «الأحداث» أدى به إلى كليّة لا يحبّها وينذر اليوم برسوبه في سنته الأولى في الجامعة. يقرأ بتمعن خطاب «السيّد الرئيس» المطلوب منهم للفحص وكلّ ما يفكرّ به هو حجم القهر الّذي سيقدم به زملاءه المندسون هذه المادة، تلمع هذه الفكرة في رأسه فيسارع إلى الموبايل ليكتب منشوراً جديداً عن البوط العسكري «الجامعي» الداعس عروس المندسين بالصرماية.

٣
خَائِنٌ

وائل كان صديقاً لأمجد، كان ذلك قبل أن يعترض وائل على منشور لأمجد يحتفي فيه «بفقس البيضا»، بعد هذا الاعتراض خسر وائل أمجد وما تبقى له من أصدقاء كليته وعاد عملياً كما أتى إلى اللاذقية منذ عدّة أشهر؛ وحيداً بلا أصدقاء. لم يتخيّل وائل حجم الطائفية والحقد الموجود في الجامعة، لم تنبئه قريته الصغيرة بذلك على الأقل. بالرغم من طبيعته الطيبة وموقفه المتزن يبقى من الصعب على طالبٍ جديد مثله تكوين علاقاتٍ قوية مع أصدقاء من «الضفّة الأخرى». كما أنّ طيبته وموقفه المتزن نفسه جرداه من الحماية الّتي يؤمنها «الانتماء الجمعي» وأفضى به إلى وصمه بـ «الخائن». يفكّر وائل بالتخلي عن بعض أفكاره لاستعادة أصدقاءه وإعادة «تلميع» صورته، يدرك بسرعةٍ كم أنّ ذلك صعب.

٤
سَرِقَةُ رُوْح

يصطف المشيعون على المقبرة لأداء صلاة الجنازة على روح شهيد القرية. القهر يسود الجبل كلّه؛ هكذا يشعر كلّ هؤلاء النّاس الّذين أتوا ليودعوا «هيثم» الّذي لم يمضِ على التحاقه بخدمة العلم شهر بعد. يختم الشيخ صلاته ويدعوا مجدداً للفقيد بالرحمة ويتلو بضع آيات من القرآن في فضل الشهادة والشهداء، ثمّ ينتقل بشكل روتيني للدعاء لقائد الوطن ومن حوله من «الأطهار» كما يحب أن يسميهم. تصرخ أخت الشهيد المنهارة بين أذرع نسوة القرية: «الله ياخدو متل ما أخدلي قلبي، الله يفجعو بولادو الله..»، تسدّ النسوة اللّواتي يحملنها فمها بشكل عفويّ لتعود للغرق بين دموعها وشهقاتها. يتلعثم الشيخ قليلاً، يهمّ الشباب بوضع الشهيد في التراب. شباب آخرون ينقلون نظرهم بقلقٍ بين وجه رئيس فرع الأمن العسكري ووجه أخت الشهيد.

٥
لَقَدْ خُدِعتْ

يعود علي إلى أهله في إجازةٍ قصيرة الأمد معكّر المزاج بعينين مهمومتين وتعب واضح يكلّل محياه، ينطف قلب الأم على فلذة كبدها الغائب عنها منذ أكثر من شهرين في حمص حيث طلب للاحتياط، تضمّه وتشمّه تحاول لاحقاً أن تسأله لما كلّ هذا الحزن بلا جدوى. يشرح

بصوت مخنوقٍ لوالده الشيخ العجوز أنّه لا يريد أن يعود، يحدّثه أنّ الضابط يحثّهم على سرقة منازل «السّنة» لأنهم لن يعودوا إلى هذه الأحياء يوماً -كما يقول-، يحكي له بحرقة عن حجم الكذبة الّتي اكتشفها و هو يشاهد كيف تنفّذ «الأوامر» أمامه وهو الّذي كان ذاهباً ليفدي الوطن بروحه. «مو هيك ربيتنا يا بيي، ربيتنا عالحلال، بدهن يرجعوا يربونا من جديد عالحقد و السرقة»، تدمع عينا الأب ويتساءل: «شو بدنا نعمل إذا إجو ياخدوك؟».
«بيعينا الله يابيي ما بعرف بس لحمص مالي رجعة» يقبّل يده وينصرف.

٦
مَا حَدَا أَحْسَنْ مِنْ حَدَا

يدخل توفيق أستاذ الرياضيات الشاب قاعة امتحانات البكالوريا بهدوء، ينقر على الطاولة ويتوجّه للطلاب بالكلام: «المسلحين عميفوّتو الكتب للطلاب بكل البلد وإنتو طلاب طرطوس أحسن طلاب بهالبلد، نقلو فيدو بعضكون بس بلا شوشرة مشان مراقبين الوزارة» تقاطعه مراقبةٌ أخرى بعصبية مؤكدةً أن هذا الأمر لايمكن أن يحدث في قاعةٍ تراقب فيها لأنّ ضميرها حيّ. مشادةٌ كلامية غريبة بين المراقبَين انتهت بفرض المراقِبة لرأيها بشراسة خاصةً بعد تهديدها بمدير المركز و«اللي أعلى منو». ينظر الطلاب إلى المراقبة بحقد وهي شاردةٌ تفكّر فيما قاله الأستاذ توفيق عن النقل في المحافظات الأخرى، تفكّر في «رخص» الضمير وبأشياء كثيرة. لاحقاً انتشرت القصة وانقسمت البلدة بأكملها بين معجبٍ بالمراقبة، ولاعنٍ لها.

٧
أزْعَرْ وَطَنِي

مع مغيب الشمس، يجلس على كرسيّه على كورنيش طرطوس المكتظ بأهلها وزوارها ونازحيها، رائحة «العَرَق» تفوح من فمه وتعكّر رائحة البحر، كنزته البشارية المتسخة، رأسه الحليق، وذقنه المطلقة تشوّه ديكورات مَكسِر البحر المصممة بعناية لتوحي للناظر بالسلام. يتكأ على روسيّته، يسبرُ الناس بعينيه الحمراوين، يلقي بين الفينة و الأخرى بالتلطيشات الّتي يختارها بعناية لتناسب الصبية الحلبية حيناً والطرطوسية حيناً آخر. يركب ورفاقه في جيش «الدفاع الوطني» سيارتهما المفيّمة ويستعرضون قليلاً بعبورهم الكورنيش بالمعاكس.

يتمتم الجميع لعناً لهم وقرفاً من هذه المظاهر، ويضرب الجميع -أنفسهم- التحيّة لـ «البوط العسكري المزروع ورداً» على كلّ دوّارٍ في طرطوس.

صور من العالم الآخر- أيلول ٢٠١٣

١

رشوة وطن

يتهدّج صوت الأُم وهي تحاول حثّ ابنها على القدوم إلى الضيعة في العيد، مضت ٣ أشهر منذ التحق بالاحتياط في درعا ومن يومها لم تره. يحاول محمود أن يشرح لها كيف أنّ الضابط المسؤول عنه لم يعطِه إجازة لأنّ الوضع خطير. يخفي محمود عنها بعض التفاصيل .. الإجازة في قطعته تتطلب حفنةً من المال لجيب الضابط؛ من استطاع تأمينها من رفاقه عاد لأهله في العيد أمّا محمود وأمثاله فيخبرون أهاليهم أنّ «الوطن يحتاجهم». تحت وطأة إصرار الأم وحنينها يقول محمود بمزيج من الجد والمزاح: «إذا إجيت يامو مالي رجعة لهون، بتجيبيلي كل يوم زوادة لإرجع اتخبا منون بحرش الضيعة؟»، تصمت الأم.

٢

أخطاء فرديّة

تتقدّم «فرقة» الموتورات تشييع معظم الشهداء هنا، شباب مزينون بسلاحهم المشهر للأعلى وأصابعهم الّتي ترفع إشارة النصر. كلما كان الرصاص المطلق في الهواء أكثر كثافةً كلما دلّ ذلك على أنّ الشهيد أعلى رتبة أو أكثر قيمةَ أو أنّ له قصة موت مؤثرة كأن يكون «القائد الأمل» قد ضحى به وقضى بسبب نقص الذخيرة! لم يعد القتلى أو الجرحى الّذين أصيبوا بأخطاء فردية من رصاص شبيحة التشييعات أمراً فريداً، بل أصبح ذلك أمراً طبيعياً، من الروتيني أن يموت شاب أو يصاب طفل أو يتأذى مبنىَ بين تشييع وآخر. تلك أخطاءٌ فردية تبرّرها الحاضنة الشعبية نفسها الّتي مازالت تبرّر بعض الأخطاء الفردية الّتي يرتكبها النظام من مكانٍ لآخر في سوريا.

٣

نهاية المؤامرة

هنا على مفترق طرق بين بضعة قرى في «مشتى الحلو» ربضوا لبضعة أشهر، العلم ذو العيون الخضر على البراميل، صور أبو حافظ في كل مكان، رجال أربعينيون وبضعة فتية من الزعران يلبسون اللباس العسكري ويتأبطون الروسيات أو يلعبون بها للترويح عن النفس. حاجز لجان شعبية يفتّش السيارات الّتي يعرف أصحابها جميعاً مقابل راتب من «شعبة التجنيد»، يتقبل كل المارة وجود الحاجز ويثنون على دوره الهام والمحوري في حماية قرى المنطقة من الإرهابيين في قلعة الحصن وقرى التركمان المجاورة. اليوم ملّ الشباب هذا الروتين تركوا الحاجز بأعلامه وصوره وانصرفوا لشؤونهم، لم ينتبه أحدٌ من المارة لذلك عملياً، ومازالت المؤامرة مستمرة.

٤

حالة طوارئ

يقاطع أحد المشايخ حديثي العهد قرقعة المعالق في صحون البرغل ليقرأ بعضاً من الآيات في الزكاة وواجب المسلم تجاه المسلم ثمّ يقول: «يا إخوان طايفتنا هلا متل كل البلد مارقة بأزمة، عيل الشهداء والمخطوفين معباية الضيع، طفال ونسوان ماعد إلهن معيل لازم نحنا نغير من حالنا وما ناخد زكاة ونوجّه تصير تنعطى كلا لشي هيئة أو مجموعة موثوقة توزعا بالعدل عالمحتاجين». وافقه بعض المشايخ وأثنوا على حُسن إيمانه وبدأ البعض بالنقاش حول آلية تطبيق ذلك، بينما أكمل معظم المشايخ نهمَهم شاردين في موعد «عمل الخير» القادم.

٥

يوتيوب

أبو علي شيخ مسنّ أرسل ابنه لخدمة قائد الوطن عندما طلبه «احتياطاً» لخان العسل، يحاول أبو علي أن يبدو متماسكاً وهو يطلب من حمودة ابن أخيه خدمة! «عميقولو نزلو صور لعساكر خان العسل عهادا اليوتيب، إنتا من جماعة الانترنت ياعمي شفلنا دورلنا عابن عمك أملي بالله كبير إنو لساتو عايش»، يتهرّب حمودة من البحث بحضور عمّه وينتظر مغادرته. يبكي حمودة لاحقاً أمام شاشة كمبيوتره وبداخله خليط غريب من المشاعر وابن عمه يساق للقتل أمامه، لا يدري كيف سيخبر عمّه، يتمنّى لو كان درويشاً مثله بدلاً من أن يكون من جيل اليوتيوب.

٦
خُذلانْ

علاء من أولئك الشباب القليلين الّذين يجهرون عداءهم للنظام في قريته، بالرغم من كل المضايقات الّتي تعرّض لها من قبل الأمن ومن قبل أهل القرية أنفسهم، يصرّ علاء على الاستمرار في موقفه، يحاول دائماً أن يظهر للبسطاء في القرية كيف أنّ النظام يستغلّهم كيف أنّه يخدعهم، يحاول أن يمنعهم من الالتحاق بالجيش والموت في مواجهة أبناء وطنهم، يدافع عن الثورة وعن المستقبل ويرفض ادّعاءهم بأنّ الثورة تستهدفهم شخصياً. علاء اليوم مصاب بالكآبة وقد اختار العزلة عن محيطه، لم يستغرب علاء حدوث انتهاكات بحق المدنيين في ريف اللاذقية ولكنّه لم يستطع أن يستوعب موقف الكثيرين ممن انتظر منهم موقفاً آخراً، موقفاً شجاعاً يليق بكل ما كان يرويه عنهم علاء لأهل القرية وكان موقفهم أشبه بموقف أهل القرية من مجزرة البيضا. يشعر علاء بالتعب، والوحدة ولأوّل مرة باليأس.

٧
رصاصْ

كلما كانت رتبة الشهيد المشيّع في طرطوس رفيعةً أكثر، كلما فرح الأطفال أكثر، هؤلاء لايعنيهم من هو الشهيد ولا حجم بطولاته ضد الإرهابيين و لا كونه «بطل وادي الذهب» أو «أسد بابا عمرو». كل مايعنيهم هو أن يركضوا فرحين متظاهرين بالحزن خلف التشييع ليجمعوا فوارغ الرصاص التي يتناسب عددها مع رتبة الشهيد. لاثياب جديدة في العيد، و لامسدسات خرز، ولا ألعاب ناريّة، فقط فوارغ الرصاص.

٨
شهيد

أوصلوا لها أشلاء ابنها الذي اغتالته يد الغدر في عرامو في ريف اللاذقية، ارتمت على بقايا الجثمان، مزّقت الكفن متفجعة، ودفنت دموعها الحمراء في طعنات السواطير حتى لأمتها، وقتها فقط توقفت عن البكاء، نهضت ناظرة إلى الجموع الصامتة، وبدأت تصرخ وتشتم الرئيس وتدعو عليه، قلةٌ قليلة بقيت تحاول تهدئتها، والكثرة الباقية خرجت لتأخذ الأعلام والصور تحضيراً للانطلاق بموكب التشييع.

٩
موتو بصمت

لاتستطيع سارة وصف سعادتها بعد أن عادت من إحدى مساكن الضباط في دمشق إلى قريتها. بالرغم من أنّها لم تعد تستطيع رؤية زوجها الضابط إلا في الإجازات الطويلة نسبياً إلا أنّ كل ما كان يهمها هو أن تهرب بأطفالها إلى مكان آمن. تلعن سارة الإرهابيين والمسلّحين والفورة وفوّارها لأنّ أصوات المدافع أبعدت النوم عن عيون أطفالها وساقت بالكوابيس إليهم، الأسى والحزن على أطفال سارة يعمّ المجلس دون أن يخطر لسارة أو لأي من مستمعيها مجرد التفكير بالأطفال الّذين تسقط عليهم هذه القذائف الّتي هجّرت أصواتها -فقط- سارة إلى قريتها!

صور من العالم الآخر- تشرين الأوّل ٢٠١٣

١
رُعب

صمتوا للحظة عقبت صوت انفجار كبير بدا أنّه قريباً، مجموعةٌ من الناس في سوق الخضرة في صافيتا بدأت تتحدث بوجوه صفراء إذا ماكان هذا الصوت هو صوت «التوماهوك»، أم صوت «هاونٍ ما» أو صواريخ محليّة الصنع يضربهم بها الأخوة الأعداء. «بلشو يضربونا .. يا ويلي أنا» تصيح سيدة أربعينية بوجه ممتقع وجرزة بقدونس تسقط من يدها. لم يحتج الأمر أكثر من دقيقة ليواصل الناس حياتهم الطبيعية الآمنة والمطمئنة.. لم يكن الصوت إلا صاروخ سكود من إحدى القواعد القريبة، إنّه السكود بعد طول غياب.. لاشيء يدعو للقلق.

٢
بيمون

يتلقى أبو حسن سيلاً «مدعوماً» من الشتائم على مرأى من عشرات المارة في «شارع الثورة» في طرطوس. رجلٌ بلباس عسكري يرجّح أن يكون عنصراً في «جيش الدفاع الوطني» يقود مُوتُوراً كسر على تكسي أبو حسن وكسر مرآتها، ترجّل حانقاً من على دراجته النارية

ليلقّن أبو حسن وأمثاله من «الشعب الجحش» درساً في قواعد القيادة. تواسط الناس لهذا الدرويش الأربعيني، وانحلّت سلميّة. يتلعثم أبو حسن مجروح الكرامة وهو يبرّر للزبون الجالس معه في التكسي «بس لو ما كان لابس البدلة، هي البدلة كبيرة ولك عمّي»، يقلّب أبو حسن المحطات على مذياعه ليستقرّ به الأمر على إذاعةٍ تبث «هادا جيش الوطن، هادا منّا وفينا».

٣
ذُنوبْ

ينظر أبو صالح إلى أشجار الزيتون بأسى. لاحاجة للنابور الذي أحضره فالموسم هذا العام معدوم تقريباً، حتى «اللقطيّة» يابسة وليس فيها ما يكفي للمونة. العام الماضي لم يكن هناك موسم أيضاً. «ذنب .. والله» يقول بتنهّد، فتعلق أم صالح التي لم تستطع حبس دموعها «شو بس عندك؟! بكل المنطقة أفي موسم». يقول بيأس «كل المنطقة ذنوب ... يا رب فرجك يا الله».

٤
مواهب

«أصلاً فيروز تافهة قدام المواهب اللي عنا، فشرت تكون أحسن من علي الديك وحسام جنيد ووفيق حبيب» يقول نوّار ساخراً من قرار بلدية طرطوس إلزام سيارات بيع الغاز في طرطوس وضع أغانٍ «وطنية» بدلاً من أغاني فيروز. كان نوار منذ أيام في شاطئ الأحلام مع صديق أروادي حين سمعوا أغنيةً يبثها أحد مستثمري خيم القصب الشعبية: «علويّة علويّة .. جبل محسن علويّة .. حيّو الدكتور بشار .. رئيس الجمهوريّة». وقتها قال له صديقه مازحاً: «ضحاك يا عرصا، بس من يضحك أخيراً يضحك كثيراً».

٥
إدانة

يتابع أحد الشباب مقطّباً حاجبيه نشرة أخبار «سما»، صرير أسنانه يسمع في كل الغرفة، يجتاحه الغضب والحقد مع استمرار المذيع بعرض فنون «الجيش الحر» في التمثيل بجثث المدنيين الأبرياء. هنا يعدّ الذبح والتقطيع على الهوية مرادفاً لفظياً حصرياً لـ «الجيش الحر»،

يتعصّب الشباب لهذا المفهوم تماماً بنفس قدر تعصبهم «لمعصومية» جيش النظام إذا ما حاولت أن تقودهم ليشاهدوا بعضاً من فيديوهات التمثيل الأخرى لتستجدي منهم ولو بعض الإدانة.

٦
خيبة أمل

صعقت أسرة رامي من التدني الكبير في مستواه الدّراسي الّذي كاد أن يتسبب برسوبه لولا حزمة المراسيم الّتي عاجله بها السيّد الرئيس. كان رامي من الأوائل في كلية الهندسة ومن المشهود لهم بفطنتهم وأخلاقهم في القرية. تحاول الأم أن تتكهن بالسبب وراء هذه «العين» الّتي أصابتهم، ترجّح أفكارها وجود فتاة سلبت قلب ابنها، تحاول دائماً أن تستنطقه بلطف ولكنّه يسخر منها دائماً بقوله «هلق وقت الصبايا!».
والد رامي موظّف في البلدية، تلمع عيناه في كلّ مرّة يمازح فيها رفاقه في العمل ليخبرهم أنّ ابنه سيتخرّج قريباً ليصبح رئيساً للبلدية ربما. هذه أقصى طموحات أبو رامي الخمسيني الّذي يرى الدنيا من عيني ولده. يظنّ أبو رامي أنّ إيماءات ابنه وهو يوصيه على باب البولمان كلّ مرةٍ يسافر فيها بالابتعاد عن المشاكل، والحفاظ على علاقة طيبة مع الجميع ستكون كافيةً ليطمئن على ولده. رامي اليوم أصبح من اللاعبين في صفوف القيادات الطلابيّة «الوطنية» الّتي تتكفّل بالحفاظ على أمن الجامعة. يغلق رامي الهاتف بعد أن طمأن والده إلى أنّه يدرس ووعده بالتخرّج هذا العام، ليكمل تقصيّاته عن أحد الطلاب الإرهابيين الّذين يبثون سمومهم «الثورية» على فايسبوك.

صور من العالم الآخر- تشرين الثاني ٢٠١٣

١
أطفال الأسد

بالرغم من المشقة والخوف الّذي يرافق مجرّد التفكير بالسفر إلى دمشق، يضطر «أبو يحي» لاصطحاب وحيده كلّ فترةٍ إلى طبيب في العاصمة بسبب مرضٍ خبيث تجب متابعته ومعالجته. مضت ساعةٌ من الانتظار في ردهة مشفى الأطفال بانتظار دور يحي المذعور

من أصوات القصف الّتي تسمع بوضوح على مدار اليوم في دمشق. تصدر شهقةٌ مكتومة من الصبي الصغير إثر صوتٍ قوي لإحدى المدافع، ثمّ يبدأ بالبكاء. يحاول الوالد تهدئة ابنه ويصرخ فيه: «نحنا رجال الأسد مامنخاف شبنا!». يبلع «أبو يحيي» ريقه بتوتر وهو يشاهد أهالي المرضى المنتظرين يرمقونه بنظرة غريبة.

٢
حيدري-كلازي

اسودّت الدنيا بوجه «عامر» -طالب الهندسة في جامعة تشرين- بعد أن اكتشف أنّ الفتاة الّتي يحبها «كلازية». بالرغم من أنّ «عامر»، الحيدري الأصل، لايقيم وزناً لهذه التقسيمات العلوية الداخلية إلا أنّه يدرك تماماً صعوبة استمراره مع حبيبته أمام أهله ومجتمعه. يلخص له أحد أصدقائه المسألة بقوله: «صحي نحنا والكلازية هلق صف واحد وقلب واحد وهني أخوتنا وعالعين والراس بس هني بيضلو غيرنا وإنتا بتعرف بشو بيفرقوا عنا، هلق الخطر الأكبر من السنة بس هالشي أبيعني إنو تاخد راحتك وتعشق وحدة كلازية!».

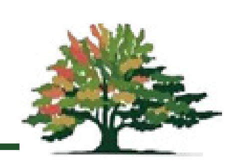
٣
اتحاد الفلاحين

يستشيط «أبو علي» غضباً وهو يستمع لابن أخيه الّذي يروي له كيف يقوم شبان من «الدفاع الوطني» بقطع أشجار الزيتون كما هي من بساتين في إدلب ومن ثمّ ينقلونها ويقطفون زيتونها ويبيعونه قبل أن تقطّع وتباع حطباً. يلقي «أبو علي» لعناته وشتائمه على هؤلاء المجرمين والسفلة، فبالرغم من وقوفه مع القيادة الحكيمة و الجيش الباسل الّذي يحمي أولاده وأحفاده من الإبادة إلا أنّه، وهو الّذي قضى حياته بين أشجار الزيتون، لا يستطيع أن يتخيّل شعور فلاح عاد ليجد أشجاره قد قطعت وبيعت حطباً. يقول وهو يغادر المنزل: «قد مايكونو صحابينا أبيسوو، هاد رزق، هاد شقا العمر، هاد ضنا. والله ليجازينا الرب كلنا .. والله».

٤
سذّج الوحدة الوطنيّة

تنتبج أوردة أحد الناشطين المعارضين على قناة «سوريا الغد» وهو يناشد أخوته العلويين





إنقاذ سوريا من الهاوية الّتي تتدحرج إليها والوقوف إلى جانب أخوتهم في الوطن، متعهداً ألا يمسهم أحدٌ بسوء، ومؤكداً أنّ المحاكات العادلة الّتي ستلي سقوط النظام لن تميّز بين «المواطنين» على أساس الطائفة وستعاقب كل المجرمين و و و ...».

خلف الشاشة، يجلس مثقّف طرطوسي يضحك حتى أذنيه على هؤلاء السذج من «الفوار» الّذين يتخيلون أنّ العلويين بهذا الغباء حتّى يصدقوا ترهاتهم، «لعنكم الله خربتو البلد ياطائفين يا أنجاس، قال حرية قال!» يقولها بكل وطنية ومسؤولية قبل أن ينصرف ليكمل حياته الطبيعية بانتظار انتصار القائد.

٥
ثورة من دم

لايعلم الناس حولّه أن يكتب في سنديان، بل لا يعلم أحدٌ بأنّه معارض أصلاً، فهو ينتمي لإحدى الأسر المشهود لها بالوطنية حتّى النخاع. والده من وجهاء القرية، أخوه لبّى نداء الاحتياط منذ سنة، اثنان من أبناء عمومته استشهدوا. يترك مقاله الذي لم ينهيه بعد ويذهب لسهرة مع صديق المدرسة الذي يخدم الآن في درعا، يعدّ تقريراً عن الوضع الانساني في الغوطة ويسأل كل من يتواصل معهم عن صديقٍ آخر مختطف في الغوطة مازال يشعر أنّه على قيد الحياة بالرغم من أنّ والدته لبست الأسود عليه منذ أكثر من شهرين!

٦
حضارة الشيطان

«قصمت ظهرنا ياجامع» يردّدها مراراً وتكراراً وسط صمت أصدقائه الّذين بدءوا يتململون من كلّ هذا الحزن الّذي ركب «أبو محمد» بعد تلقيه نبأ مقتل «جامع جامع». يعتبر «أبو محمد» مقتل «جامع» مصاباً شخصياً له هو الّذي كان موظفاً في المنطقة الشرقية لأكثر من ٢٠ عاماً قبل أن يعود وعائلته إلى القرية. يشعر «أبو محمد» بمنّةٍ شخصيّة للقتيل عليه! يكمل رثاءه بذكر مناقبه أمام الحاضرين ليختتم حديثه بالإشارةٍ إلى أنّ المغدور كان أشبه بـ «رسول حضارةٍ» للناس هناك ممن لم يعرفوا الحضارة يوماً! فقتلوه لجهلهم وطائفيتهم.

٧
رسوب جماعي

متل «فؤاد» هنا «متايل»، تقصّد الشاب الرسوب في سنته الأخيرة في الجامعة بدافع الهروب من الخدمة الإلزامية. يفضّل فؤاد أن يضيع سنةً من عمره بلا جدوى، يشرب المتّة ويتابع الأخبار العامة أملاً بتحسّن الأمور على أن يقدّم كامل عمره لـ«الوطن». مع كل جنازة شهيد يشارك بها، يزداد إصرار فؤاد على عدم الالتحاق بالجيش ولو اضطرّ إلى النوم على الأرصفة في أي بلدٍ يستطيع الهروب إليه بعد تخرّجه من الجامعة العام القادم. معظم أولئك الّذين يشبهون فؤاد يندمون ساعة لا ينفع الندم، قبيل استشهادهم بثوانٍ.

٨
«بن جدّو» ينعم بالإصلاح

السيّد الرئيس -مالئ الدنيا وشاغل الناس- أطلّ على الميادين فكاد العدا وأثلج قلوب مؤيديه وشحذ من عزائمهم وباتوا متأكدين بأنها تقريباً «خلصت». ينقسم الناس هنا حول تفصيل محوريّ وهام في المقابلة، هل كان من الوقاحة من «بن جدّو» أن يقول لسيادته «مين هوي بشار الأسد ليوقف بوش العالم»، أم أنّ ذلك ظهر كبرهان دامغٍ على سعة صدر سيادته وفتحه لآفاق حريات التعبير في سوريا. تلك كانت النقطة الوحيدة الّتي يتيح «العرف المنحبكجي» أن يتمّ الاعتراض عليها في مقابلة «سيّد الوطن».

